فقه السيرة المحاضرة الأولى:أهمية دراستها (من كتاب د.محمد سعيد البوطي)

**أهمية السيرة النبوية فى فهم الإسلام**

**ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية وفقهها، مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية، ولا سرد ما طرف أو جمل من القصص والأحداث ولذا فلا ينبغى أن نعتبر دراسة فقه السيرة النبوية من جملة الدراسة التاريخية، شأنها كشأن الإطلاع على سيرة خليفة من الخلفاء أو عهد من العهود التاريخية الغابرة.**

**وإنما الغرض منها، أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية فى مجموعها متجسدة فى حياته صلى الله عليه وسلم، بعد أن فهمها مبادئ وقواعد وأحكام مجردة في الذهن.**

**أي أن دراسة السيرة النبوية، ليست سوى عمل تطبيقي يراد منه تجسيد الحقيقة الإسلامية كاملة، في مثلها الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم.**

**وإذا أردنا أن نجزئ هذا الغرض ونصنف أجزاءه، فإن من الممكن حصرها في الأهداف التفصيلية التالية:**

**1- فهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ( النبوية ) من خلال حياته وظروفه التى عاش فيها، للتأكد من أن محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد عبقرى سمت به عبقريته بين قومه ولكنه قبل ذلك رسول أيده الله بوحى من عنده وتوفيق من لدنه.**

**2- أن يجد الإنسان بين يديه صورة للمثل الأعلى فى كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة، كى يجعل منها دستورا يتمسك به ويسير عليه،ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى فى ناحية من نواحى الحياة فإنه واجد كل ذلك فى حياةالرسول صلى الله عليه وسلم أعظم ما يكون من الوضوح والكمال.**

**ولذا جعله الله قدوة للإنسانية كلها إذ قال : ( لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ) الأحزاب 21.**

**3- أن يجد الإنسان فى دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم ما يعينه على فهم كتاب الله تعالى وتذوق روحه ومقاصده، إذ أن كثيرا من آيات القرآن إنما يجليها وتفسرها الأحداث التى مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفه منها.**

**4- أن تتجمع لدى المسلم من خلال دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية الصحيحة، سواء ما كان منها متعلقا بالعقيدة والأحكام والأخلاق، إذ لا ريب أن حياته صلى الله عليه وسلم إنما هي صورة مجسدة نيرة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه.**

**5- أن يكون لدى المعلم والداعية الإسلامي نموذج حي عن طرائق التربية والتعليم، فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم مربيا فاضلا ومعلما ناصحا لم يأل جهدا فى تلمس أجدى الطرق الصالحة الى كل من التربية  والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته.**

**وإن من أهم ما يجعل سيرته صلى الله عليه وسلم وافية بتحقيق هذه الأهداف كلها أن حياته عليه الصلاة والسلام شاملة لكل النواحى الإنسانية والإجتماعية التى توجد فى الإنسان من حيث إنه فرد مستقل بذاته أو من حيث أنه عضو فعال فى المجتمع.**

**فحياته عليه الصلاة والسلام تقدم إلينا نماذج سامية للشاب المستقيم فى سلوكه، الأمين مع قومه وأصحابه، كما تقدم النموذج الرائع للإنسان الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، الباذل منتهى الطاقة في سبيل إبلاغ رسالته، ولرئيس الدولة الذى يسوس الأمور بحذق وحكمة بالغة، وللزوج المثالى فى حسن معاملته والأب فى حنو عاطفته مع تفريق دقيق بين الحقوق والواجبات لكل من الزوجة والأولاد، وللقائد الحربي الماهر والسياسي الصادق المحنك، وللمسلم الجامع - فى دقة وعدل - بين واجب التعبد والتبتل لربه، والمعاشرة الفكهة اللطيفة مع أهله وأصحابه.**

**لا جرم إذاً، أن دراسة السيرة النبوية ليست إلا إبرازا لهذه الجوانب الإنسانية كلها مجسدة في أرفع نموذج وأتم صورة.**

**سر اختيار الجزيرة العربية مهداّ لنشأة الإسلام**

**ولابدّ قبل أن ندخل فى الحديث عن سيرته صلى الله عليه وسلم، وعن الجزيرة العربية التى نشأ فيها واختاره الله منها - من أن نستجلى الحكمة الإلهية التى إقتضت أن تكون بعثته عليه الصلاة والسلام فى هذه البقعة من العالم دون غيرها، وأن تكون نشأة الدعوة الإسلامية على يد العرب قبل غيرهم.**

**ولبيان هذا ينبغى أولا أن نعلم خصائص العرب وطباعهم قبل الإسلام، وأن نتصور البقعة الجغرافية التى كانوا يعيشون فيها وموقعها مما حولها وأن نتصور فى مقابل ذلك ما كانت عليه الأمم الأخرى إذ ذاك كالفرس والروم واليونان والهنود، من العادات والطباع والخصائص الحضارية.**

**ولنبدأ أولا بعرض موجز لما كانت عليه الأمم التى تعيش من حول الجزيرة العربية قبيل الإسلام. كان يتصدر العالم إذ ذاك دولتان إثنتان، تتقاسمان العالم المتمدن هما: فارس والروم، ويأتى من ورائهما اليونان والهند. أما فارس، فقد كانت حقلا لوساوس دينية فلسفية متصارعة مختلفة. كان فيها الزارادشتية التى إعتنقها ذوو النفوذ والسلطة الحاكمون، وكان من فلسفتها تفضيل زواج الرجل بأمه أو إبنته أو أخته، حتى أن يزدجرد الثانى الذى حكم فى أواسط القرن الخامس الميلادى تزوج بابنته. هذا الى جانب إنحرافات خلقية مشينة مختلفة لا مجال لسردها هنا.**

**وكان فيها (المزدكية) التى قامت كما يقول الإمام الشهرستانى على فلسفة أخرى هى حل النساء وإباحة الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ، وقد حظيت هذه الدعوة باستجابة عظيمة لدى أصحاب الرعونات والأهواء وصادفت لديهم قبولا عظيما.**

**أما الرومان، فقد كانت تسيطر عليهم الروح الاستعمارية، وكانت منهمكة فى خلاف ديني بينها من جهة وبين نصارى الشام ومصر من جهة أخرى، وكانت تعتمد على قوتها العسكرية وطموحها الاستعمارى فى مغامرة عجيبة من أجل تطوير المسيحية والتلاعب بها حسبما توحي بها مطامعها وأهواءها المستشرية. ولم تكن هذه الدولة فى الوقت نفسه أقل انحلالا من دولة فارس، فقد كانت تسودها حياة التبذل والإنحطاط والظلم الإقتصادى من جراء كثرة الأتاوات، ومضاعفة الضرائب.**

**أما اليونان فقد كانت غارقة في هلوسات من خرافاتها وأساطيرها الكلامية التي منيت بها دون أن ترقى منها إلى ثمرة أو نتيجة مفيدة.**

**وأما الهند فقد كانت كما قال عنها الأستاذ أبو الحسن الندوى: أنه قد اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، فقد ساهمت الهند مع جاراتها وشقيقاتها فى التدهور الأخلاقى والإجتماعى.**

**هذا، وينبغى أن نعلم أن القدر المشترك الذى أوقع هذه الأمم المختلفة فيما وقعت فيه من انحلال واضطراب وشقاء، إنما هو الحضارة والمدنية اللتين تقومان على أساس القيم المادية وحدها دون أن يكون ثمّة مثل أعلى يقود هذه الحضارة والمدنية فى سبيلها المستقيم الصحيح. ذلك أن الحضارة بمختلف مقوماتها ومظاهرها ليست سوى وسيلة وسبب... فإن عدم أهلها التفكير الصائب والمثل العليا الصحيحة إستحالت الحضارة فى أيديهم إلى وسيلة للنزول بها الى درك الشقاء والإضطراب، أما إن أوتى أهلها مقياسا من العقل الرشيد الذى قلما يأتى إلا بواسطة الدين والوحى الإلهى، فإن القيم الحضارية والمدنية كلها تصبح وسائل جميلة سهلة الى السعادة التامة فى مختلف أنواعها ومظاهرها.**

**\* \* \***

**أما الجزيرة العربية فقد كانت هادئة، بعيدة بل منعزلة عن مظاهر هذه الإضطرابات كلها، فلم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية الفارسية ما يجعلهم يتفننون فى خلق وسائل الانحلال وفلسفة مظاهر الإباحية والإنحطاط الخلقى ووضعها فى قوالب من الدين، ولم تكن لديهم من الطغيان العسكرى الرومانى ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على أى رقعة من حولهم، ولم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليونانى ما يصبحون به فريسة للأساطير والخرافات.**

**كانت طبائعهم أشبه ما تكون بالمادة ( الخام ) التى لم تنصهر بعد فى أى بوتقة محوّلة، فكانت تترآى فيها الفطرة الإنسانية السليمة، والنزعة القوية الى الإتجاهات الإنسانية الحميدة، كالوفاء والنجدة والكرم والإباء والعفة. إلاّ أنه كانت تعوزهم المعرفة التى تكشف لهم الطريق الى كل ذلك. إذ كانوا يعيشون فى ظلمة من الجهالة البسيطة والحالة الفطرية الأولى، فكان يغلب عليهم - بسبب ذلك - أن يضلوا الطريق الى تلك القيم الإنسانية فيقتلوا الأولاد بدافع الشرف والعفة، ويتلفوا الأموال الضرورية بدافع الكرم، ويثيروا فيما بينهم الحروب والمعارك بدافع الإباء والنجدة.**

**وهذه الحالة هى التى عبر عنها الله عز وجل بالضلال حينما وصفها بقوله : ( وإن كنتم من قبله لمن الضالين ) البقرة (198 )، وهى صفة إذا ما نسبت الى حال الأمم الأخرى إذ ذاك - تدل على الإعتذار لهم أكثر من أن تدل على تسفيههم أو تعييرهم بها.**

**ذلك أن الأمم الأخرى كانت تستهدى لإنحرافاتها العظيمة بمشاعل الحضارة والثقافة والمدنية. فكانت تتقلب فى حمأة الفساد عن تبصر وتخطيط وفكر، ثم إن الجزيرة العربية تقع بالنسبة لرقعتها الجغرافية فى نقطة الوسط بين هذه الأمم التى تموج من حولها.**

**و الناظر إليها اليوم يجد - كما يقول الأستاذ محمد المبارك - كيف أنها تقف فى الوسط التام بين حضارتين جانحتين : إحداهما حضارة الغرب المادية التى قدمت عن الإنسان صورة بتراء لا تقع حتى على جانب جزئى من الحقيقة، وأخراهما الحضارة الروحية الخيالية فى أقصى الشرق كتلك التى كانت تعيش فى الهند والصين وما حولهما.**

**فإذا تصورنا حالة العرب فى الجزيرة العربية قبل الإسلام وحالة الأمم المختلفة الأخرى المحيطة بهم، سهل علينا أن سنتجلى الحكمة الإلهية التى إقتضت أن تتشرف الجزيرة العربية دون غيرها بمولده وبعثته صلى الله عليه وسلم، وأن يكون العرب هم الطليعة الأولى التى تحمل الى العالم مشعل الدعوة الى الدين الإسلامى الذى تعبد الله به الجنس البشرى كله من أقصى العالم الى أقصاه.**

**وهى ليست -كما يظن البعض- أن أصحاب التدين الباطل والحضارات الزائفة يصعب فيهم العلاج والتوجيه لإفتخارهم بما هم عليه من فساد ولرؤيتهم إياه شيئاً صالحا، أما الذين لا يزالون يعيشون فى فترة البحث والتنقيب، لا ينكرون جهلهم ولا يدّعون ما لم يؤتوه من مدنية وعلم وحضارة، فهم أطوع للعلاج والتوجيه - نقول ليست هذه هى الحكمة، لأن مثل هذا التحليل يصدق بالنسبة لمن كانت قدرته محدودة وطاقته مخلوقة فهو يفرق بين ما هو سهل وصعب عليه، فيفضل الأول ويتهرب من الثانى طمعا فى الراحة وكراهية للنصب. ولو تعلقت إرادة الله تعالى بأن يجعل مشرق الدعوة الإسلامية من جهة ما فى أرض فارس أو الروم أو الهند، لهيأ لنجاح الدعوة فيها من الوسائل ما هيأ لها فى الجزيرة العربية، وكيف يعز عليه ذلك وهو خالق كل شىء ومبدع كل وسيلة وسبب.**

**ولكن الحكمة فى هذا الإختيار من نوع الحكمة التى إقتضت أن يكون الرسول أميّا لا يتلوا من كتاب ولا يخطه بيمينه كما قال الله تعالى حتى لا يرتاب الناس فى نبوته عليه الصلاة والسلام وحتى لا تتكاثر لديهم الأسباب للشك فى صدق دعوته. (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) عنكبوت (48-29)**

**إذ من تتمة هذه الحكمة الإلهية أن تكون البيئة التى بعث فيها عليه الصلاة والسلام أيضا بيئة أمية بالنسبة للأمم الأخرى التى من حولهم أى لم يتطرق إليها شىء من الحضارات المجاورة لها، ولم تتعقد مناهجها الفكرية بشىء من الفلسفات التائهة حولها.**

**ذلك أنه كما يخشى من دخول الريبة فى صدور الناس إذا ما رأوا النبى (ص) متعلما مطّلعا على الكتب القديمة وتاريخ الأمم البائدة وحضارات الدول المجاورة - كذلك يخشى من دخول هذه الريبة فى الصدور إذا ما ظهرت الدعوة الإسلامية بين أمّة لها شأن فى الحضارة والمدنية والفلسفة وتاريخ ذلك، كدولة الفرس أو اليونان أو الرومان، إذ ربّ مرتاب مبطل يزعم أنها سلسلة التجارب الحضارية والأفكار الفلسفية أبدعت أخيرا هذه الحضارة الفذة والتشريع المتكامل.**

**ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحكمة بصريح العبارات حينما قال : ( هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبله لفي ضلال مبين ).**

**فلقد اقتضت إرادة الله تعالى أن يكون رسوله أميّا، وأن يكون القوم الذين ظهر فيهم هذا الرسول أميين أيضا فى غالبيتهم العظمى، حتى تكون معجزة النبوة والشريعة الإسلامية واضحة فى الأذهان لا لبس بينها وبين الدعوات البشرية المختلفة، وهذا ينطوى - كما هو واضح - على رحمة عظيمة بالعباد.**

**وهنالك حكم أخرى لا تخفى على الباحث نجملها فيما يلى :**

**1- من المعلوم أن الله عز وجل قد جعل البيت الحرام مثابة للناس وامنا، وجعله أول بيت وضع للناس للعبادة وإقامة الشعائر الدينية، وحقق فى ذلك الوادى دعوة أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ومن لوازم هذا كله ومتمماته أن تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهدا للدعوة الإسلامية التى هى ملة أبينا إبراهيم وأن تكون بعثة خاتم النبيين ومولده فيها، كيف لا وهو نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.**

**2- البقعة الجغرافية للجزيرة العربية ترشحها للقيام بعبء مثل هذه الدعوة، بسبب أنها تقع - كما قلنا - فى نقطة الوسط بين الأمم المختلفة التى من حولها.**

**وهذا مما يجعل إشاعات الدعوة الإسلامية تنتشر بين جميع شعوب الدول المحيطة بها فى سهولة ويسر، وإذا أعدت النظر الى سير الدعوة الإسلامية فى صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين وجدت مصداق ذلك جليا واضحا.**

**3- إقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية هي لغة الدعوة الإسلامية وأن تكون وسيلة المباشرة الأولى لترجمة كلام الله عز وجل وإبلاغه إلينا. ولعلنا لو أمعنا النظر في خصائص اللغات وقارنا بينها، لوجدنا أن اللغة العربية تمتاز بكثير من الخصائص التى يعز وجودها في اللغات الأخرى، فأجدر بها أن تكون لغة المسلمين الأولى في مختلف ربوعهم وبلادهم.**

**الجاهلية وما كان فيها من بقايا الحنيفية**

**وهذه أيضا مقدمة هامة لابد من دراستها قيل الخوض فى أبحاث السيرة وما فيها من فقه وعظات، إذ هى تنطوى على حقيقة لا يزال خصوم هذا الدين يطمسون عليها ويزيفونها بأشكال من الوهم والأباطيل.**

**وخلاصة هذه الحقيقة أن الإسلام ليس إلا إمتداداً للحنيفية السمحة التى بعث الله بها أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وقد صرح بذلك كتاب الله عز وجل فى آيات كثيرة منها قوله (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو إجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) الحج 78 وقوله تعالى: (قل صدق الله فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)**

**وأنت خبير أن العرب هم أولاد إسماعيل ابن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فكان أن توارثوا ملّة أبيهم ومنهاجه الذى بعث به من توحيد الله وعبادته والوقوف عند حدوده وتقديس حرماته.**

**وفى مقدمة ذلك تعظيم البيت الحرام وتقديسه واحترام شعائره والذود عنه والقيام بخدمته وسدانته فلما إمتدت بهم القرون وطال عليهم الأمد، أخذوا يخلطون الحق الذى توارثوه بكثير من الباطل الذى تسلل إليهم، شأن سائر الأمم والشعوب عندما يغشاها الجهل ويبعد بها العهد ويندّس بين صفوفها المشعوذون والمبطلون.**

**فدخل فيهم الشرك واعتادوا عبادة الأصنام وتسللت إليهم التقاليد الباطلة والأخلاق الفاحشة، فابتعدوا بذلك عن ضياء التوحيد وعن منهج الحنيفية وعمت بينهم الجاهلية التى رانت عليهم أمدا من الدهر، ثم إنقشعت عنهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم.**

**وكان أول من أدخل فيهم الشرك وحملهم على عبادة الأصنام عمرو بن لحىّ بن قمعة بن خزاعة : روى ابن اسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن جون الخزاعى : يا أكثم، رأيت عمرو بن لحىّ بن قمعة بن خندف يجرّ قصبه فى النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه، فقال أكثم : عسى أن يضرنى شبهه يارسول الله؟ قال: لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غيّر دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيّب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى).**

**وروى ابن هشام كيفية إدخال عمرو بن لحىّ هذا، عبادة الأصنام فى العرب فقال : خرج عمروبن لحىّ من مكة الى الشام فى بعض أموره، فلما قدم ( مآب ) من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملاق، ويقال عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح - رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به الى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنما يقال له (هبل) فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.**

**وهكذا إنتشرت عبادة الأصنام فى الجزيرة العربية وشاع فى أهلها الشرك، فانسلخوا من عقيدة التوحيد التى كانوا عليها واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، وانتهوا الى مثل ما إنتهت إليه الأمم الأخرى من الضلالات والقبائح فى المعتقدات والأفعال.**

**وكان من أهم ما دفعهم الى ذلك كله الجهل والأمية والتأثر بمن كان حولهم من أشتات القبائل والأمم غير أنه بقيت فيهم بقية من الناس - وإن كانت تقل مع الزمن - ظلت متمسكة بعقيدة التوحيد، سائرة على نهج الحنيفية: تصدق بالبعث والنشور وتوقن بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصى، وتكره هذا الذى استحدثه العرب من عبادة الأوثان وضلالات الرأى والفكر، ولقد إشتهر من هذه البقية كثيرون: كقس بن ساعدة الأيادى، ورئاب الشنّى، وبحيرا الراهب.**

**كما أنه بقيت فى عاداتهم بقايا من عهد إبراهيم ومبادىء الدين الحنيف وشعائره - وإن كانت تتضاءل وتضعف مع الزمن - فكانت جاهليتهم تظل منصبغة، بقدر ما بآثار من شعائر الحنيفية ومبادئها، وإن كانت هذه الشعائر والمبادىء لا تكاد تظهر فى حياتهم إلاّ مشوهة فاسدة، وذلك كتعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة وكالوقوف بعرفة وهدى البدن، فأصل ذلك كله مشروع ومتوارث لديهم من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولكنهم كانوا يطبقونه على غير وجهه ويقحمون فيه الكثير مما ليس منه، وكإهلالهم بالحج والعمرة، فقد كانت كنانة وقريش يقولون إذا أهلوا : ( لبيك الهم لبيك، لبيك لا شريك، إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك) فيوحدونه - كما قال ابن هشام - بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده.**

**و الخلاصة أن نشأة التاريخ العربى إنما تمت فى كنف الحنيفية السمحة التى بعث بها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام فكانت تغمر حياتهم عقيدة التوحيد ونور الهداية والإيمان، ثم أخذ العرب يبتعدون عن ذلك الحق رويدا رويدا، بعامل إمتداد الزمن وتطاول القرون وبعد العهد وأخذت حياتهم تنغمر بدلا من ذلك بظلمات الشرك وضلالات الفكر وعماهة الجهل، مع إستمرار بقايا من معالم الحق القديم ومبادئه تخب فى سير بطىء مع تاريخهم، تذوى وتضعف مع الدهر ويقل أنصارها ما بين سنة وأخرى. فلما استنارت شعلة الدين الحنيف من جديد، ببعثة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، أقبل الوحى الإلهى الى كل ما قد تكثف من ضلالات وظلمات خلال تلك الحقبة الطويلة من الزمن فمحاه وأنار مكانه بقبس الإيمان والتوحيد ومبادىء العدالة والحق، وأقبل الى تلك البقايا التى إمتدت بها الحياة الى مشرق النور الجديد، مما كان قد بعث به إبراهيم عليه السلام وأقرته الشرائع الإلهية، فأقرها وأكدها وجدد الدعوة اليها.**

**ولا ريب أن من نافلة القول وفضوله أن نؤكد بأن هذا الذى نقرره شىء معروف بالبداهة لمن إطلع على التاريخ، وأنه شىء ثابت بالبداهة لمن درس شيئا من الإسلام، غير أننا نضطر فى هذا العصر الى أن نضيع كثيرا من الوقت فى تأكيد البديهيات وتوضيح الواضحات. وذلك بعد أن رأينا بأعيينا كيف يخضع بعض الناس إعتقاداتهم لمجرد ما قد يكون فى نفوسهم من الرغبة والإرادة.**

**أجل لفقد عاشت هذه النوعية من الناس، ولم يعد يهمها أنها إنما تصفد عقلها بأقسى أغلال العبودية والإسترقاق الفكرى !. وما أعظم الفرق بين أن تكون إرادتك من وراء عقيدتك، وبين أن تكون عقيدتك وراء إرادتك. ما أعظم الفرق بينهما علواً وإسفافاً، وعزة وانحطاطا!**

**لقد وجد ناس يقولون - بالرغم من بداهة ما قلناه ووضوح براهينه - إن العصر الجاهلى أخذ يستيقظ قبيل البعثة على السبيل الأمثل الذى يجب إتباعه، وأحذت الأفكار العربية تثور على مظاهر الشرك وعبادة الأصنام وما يحف بها ويتبعها من خرافات جاهلية، ولقد تمثلت هذه اليقظة والثورة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الجديدة.**

**ومعنى هذه الدعوة -كما لا يخفى عليك- أن التاريخ الجاهلى كان يزداد تفتحا على حقائق التوحيد ونور الهداية مع إمتداد الزمن وتطاول الدهر، أى أنهم كلما إبتعدوا عن عهد إبراهيم وقامت بينهم وبينه قرون أخرى، إزدادوا قربا الى مبادىء دعوته حتى بلغ هذا القرب مداه الأخير إبّان بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم !. فهل هكذا يقرر التاريخ، أم أنه يقرر عكس ذلك تماما فى أبسط ما تنطق به (ألف باؤه) الواضحة المفهومة؟**

**كل باحث ومتأمل حر، يعلم أن العهد الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم إنما كان أبعد العهود الجاهلية عن هديه عليه الصلاة والسلام بالنسبة لسائر العهود الأخرى، والأطلال التي كانت لدى العرب عند بعثته عليه الصلاة والسلام من معالم الحنيفية السمحة ومبادئها والتي كانت تتمثل في لمع خاطفة من كراهية الأصنام والترفع عن عبادتها وفى النزوع إلى بعض الفضائل والقيم التي أقرها الإسلام - هذه الأطلال لا تبلغ معشار ما كان بارزاً واضحاً منها لديهم قبل بضعة قرون. وقد كان المتوقع حسب تصور هؤلاء إذاً لمعنى النبوة والبعثة، أن تكون بعثته عليه الصلاة والسلام قبل الزمن الذي بعث فيه بعدة قرون وأجيال !!**

**وأما أناس آخرون، فقد طاب لهم أن يقرروا بأن محمد صلى الله عليه وسلم لمّا لم يستطع القضاء على معظم ما كان معروفا لدى العرب من الأعراف والتقاليد والطقوس والاعتقادات الغيبية، عمد فأسبغ على كل ذلك ثوب الديانة وأخرجه مخرج التكليفات الإلهية، وبتعبير آخر : إنما أتى محمد عليه الصلاة والسلام ليضيف إلى جملة العقائد الغيبية عند العرب رقابة عليا قوامها شخصية إله قادر على ما يشاء، فعال لما يريد، فقد استمر العرب بعد الإسلام يؤمنون بالسحر وبالجن وبسائر العقائد المماثلة، كما أنهم ظلوا على ما كانوا عليه من الطواف بالكعبة وتقديسها وأداء طقوس وشعائر معينة نحوها.**

**وإنما ينطلق هؤلاء في دعواهم هذه من فرضيتين اثنتين لا يريدون أن يتصوروا خطأهما بحال، الفرضية الأولى: أن محمد صلى الله عليه وسلم ليس نبيا، والثانية: أن ما كان لدى العرب من بقايا إبراهيم التي تحدثنا عنها، إنما هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التى إبتدعوها مع الزمن من عند أنفسهم، فليس إحترام الكعبة وتقديسها أثراً من آثار دعوة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام كما أمره ربه بذلك، وإنما هو شيء نسجته البيئة العربية فكان تقليداً من جملة التقاليد العربية المختلفة.**

**وفى سبيل المحافظة على هاتين الفرضيتين أن لا يصيبهما خدش أو وهن، يغمض أربابهما العين عن جميع الأدلة والوقائع التاريخية الجلية الكبرى التى تقف فى طريقهما أو التى تردّهما وتكشف عن زيفهما وبطلانهما.**

**غير أن المعلوم أن البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يوصل الباحث إليها ما دام أنه لا يخط السبيل نحوها إلا ضمن ما تسمح به الفرضية التى وضعها فى ذهنه سلفا وقبل أى بحث. إن من المعلوم أن مثل هذا البحث إنما هو صورة من أوضح صور العبث والمضحك.**

**ولذلك فإننا لا نجد مناصا من أن نأخذ عبين الإعتبار كل دليل عقلى أو واقعة تاريخية لدى محاولة الوصول الى أى حقيقة، ما دمنا لا نقصد إلا الحقيقة الذاتية نفسها، وما دمنا لا نريد أن نكذب على أنفسنا وعلى الناس فنصطنع البحث الحر إبتغاء حمل الآخرين على فكرة معينة مهما كان شأنها ومهما كانت علاقتها بالحقيقة وواقع الأمر، لا لشىء إلا لمجرد التعصب لها.**

**فنحن لا يمكننا بحال أن نغمض الفكر عن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم المختلفة مثل ظاهرة الوحى ومعجزة القرآن وظاهرة التطابق بين دعوته ودعوة الأنبياء السابقين وجملة صفاته وأخلاقه، لمجرد أن تسلم لن فرضية أن محمداً عليه الصلاة والسلام ليس بنبىّ.**

**كما أنه لا يمكننا بحال أن نغمض الفكر عن التاريخ الذى ينص على بناء إبراهيم للكعبة المشرفة بأمر ووحى من الله جل جلاله وعن جملة ما تعاقب الأنبياء على الدعوة إليه من توحيد الله عز وجل والإيمان بالغيبيات المتعلقة بيوم الحشر والجزاء وما يتبعه من جنة ونار مما دلت عليه نصوص الكتب السماوية السابقة وصدقه التاريخ ووعته الدهور والأجيال، لمجرد أن تسلم لنا فرضية أن ما نسميه ( بقايا عهد إبراهيم ) فى العهد الجاهلى لم يكن إلا تقليد إبتدعها الفكر العربى وأن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما جاء ليطليها بطلاء الدين.**

**ومن الجدير بالذكر أن تعلم أن الناس يطيب لهم أن يزعموا هذا الزعم، لا يسوقون بين يدى زعمهم هذا ولا من خلفه أى برهان أو دليل مهما كان نوعه، إنما هو العرض المجرد لهذا التصور وبسطه فى عبارات ممطوطة مكررة ليس إلاّ.**

**ولعلك تطلب منى مثالاً على ذلك. إذاً فدونك فاقرأ كتاب بنية الفكر الدينى للمستشرق الإنكليزى المعروف ( جيب) فستبصر حينئذ مدى ما تفعله العصبية العمياء بهؤلاء الناس تلك العصبية العجيبة التى كثيراً ما تحمل صاحبها على أن يتجرد حتى من مقومات كرامته وأن يتباله أمام شوامخ الأدلة والحقائق الناصعة كى لا يلزم بالخضوع لها.**

**إن بنية الفكر الدينى فى الإسلام بنظر جيب إنما هى تلك العقائد والأفكار الغيبية عند العرب : ( الأحيائية العربية) فقد تأمل محمد صلى الله عليه وسلم فيها فغير ما أمكنه تغييره ثم عمد الى الباقى مما لم يمكنه التخلص منه فكساه حلّة الدين الإسلامى ثم لم ينس أن يدعمه بهيكل من الأفكار والمواقف الدينية الملائمة، وهنا واجهته المشكلة العظمى التى إعترضت سبيله، فهو يريد أن يبنى هذه الحياة الدينية لا للعرب فقط بل لشعوب وأمم بأسرها، فكان أن أقام هذه الحياة ضمن منهج القرآن.**

**تلك هى خلاصة أفكاره فى الكتاب. وتقرأ هذه اأفكار من أولها الى آخرها فلا تجده يقدم دليل واحد على شىء مما يقول. وتتأمل فى هذا الذى يعرضه، فلا تشك فى أن الرجل قد إستودع قواه العقلية بعيدا عن عن المكان الذى جلس يكتب فيه، واستعاض عنها بأوهام وخيالات خصبة راح يستوحى منهما كل ما يقرره ويحكم عليه.**

**ويبدوا أنه حينما جلس يكتب مقدمة الترجمة العربية له، تصور كيف أن القراء سينبذون أفكاره هذه عن الإسلام بإحتقار، فراح يعتذر !. راح يعتذر بأن قال : إن الأفكار التى أسست عليها هذه الفصول ليست بنات دماغ هذا المؤلف، بل سبقنى إليها ودلنى عليها جماعة من المفكرين ومن أقطاب المسلمين وقد يطول إحصاؤهم، فسأكتفى بذكر أحدهم بسبيل المثال، هو الشيخ الكبير شاه ولى الله الدهلوى. ثم نقل نصاً للشاه ولى الله الدهلوى عزاه الى ج 1 ص 122 من كتابه حجة الله البالغة، ويبدوا أنه إطمأن الى أن أحداً من القراء لن يجشم نفسه مشقة الرجوع الى الكتاب والتأكد من النص الذى فيه، فحرف على لسان الرجل ما شاء له هواه، واقتنص منه ما رآه كفيلا بتحوير معناه وتنكيس مقصده، حتى حمله بذلك من الوزر مالم يحمل وأنطقه بما هو منه برىء.**

**فأما النص كما إنتزعه واقتنصه من أصله فهو ( أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث بعثة تتضمن بعثة أخرى، فالأولى إنما كانت الى بنى إسماعيل... وهذه البعثة تستوجب أن يكون مادة شريعته ما عندهم من الشرائع وسنن العبادات ووجوه الإرتفاقات، إذ الشرع إنما هو إصلاح ما عندهم لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلاً ).**

**وأما النص الكامل الثابت فى كتاب حجة الله البالغة الى جانب نفس العبارات التى إقتنصها ليحور معناها فهو ما يلى : ( واعلم أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالحنيفية الإسماعيلية، لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها، وذلك قول الله تعالى ( ملة أبيكم إبراهيم ) ولما كان الأمر فى ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة وسننها مقررة، إذ النبى إذا بعث الى قوم فيهم بقية سنة راشدة فلا معنى لتغييرها وتبديلها، بل الواجب تقريرها لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الإحتجاج عليهم، وكان بنوا إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل، فكانوا على تلك الشريعة الى أن وجدعمرو بن لحىّ، فأدخل فيها أشياء برأيه الكاسد، فضل وأضل، وشرع عبادة الأوثان وسيّب السوائب وبحر البحائر، فهنالك بطل الدين واختلط الصحيح بالفاسد وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم مقيما لعوجهم ومصلحاً لفسادهم، فنظر صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم فما كان منها موافقا لمنهاج إسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أبقاه، وما كان منها تحريفا أو فساداً أو من شعائر الشرك أو الكفر أبطله وسجل على إبطاله).**

**ولا ريب أننا لا نسوق عمل مثل هذا ( الباحث ) وتحريفه للنظر والمناقشة فمن العبث مناقشة لغو مفضوح مثل هذا اللغو، ولكننا نقصد أن يعلم القارىء مدى ما تفعله العصبية العمياء بصاحبها. كما نريد أن يقف على حقيقة ما يتشدق به البعض عن منهجية البحث العلمى وموضوعيته لدى علماء الغرب ثم مدى ما يفعله التقليد الذليل الأعمى ببعض المسلمين أنفسهم.**

**وإذاً فقد أدركت حقيقة العلاقة بين الإسلام والفكر الجاهلى الذى كان سائدا لدى العرب قبل ظهوره، كما أدركت العلاقة بين العصر الجاهلى والملّة الحنيفية التى كان قد بعث بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وقد تجلى لك من ذلك، السبب الذى من أجله أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من العادات والمبادىء التى كانت سائدة عند العرب، فى حين أنه ألغى سائرها وذهب فى حربها والقضاء عليها كل مذهب.**

**وبذلك نكون قد إنتهينا من عرض هذه المقدمات التى لابد منها بين يدى دراستنا لجوهر السيرة النبوية واستنباط فقهها وعظاتها.**

**وستجد خلال أبحاثنا القادمة مزيداً من البراهين التى تؤكد ما أوضحناه وتزيد فى تجليته والكشف عن حقيقته.**